موسيقى - بيروت رنّمت موزار وهايدن وروسيني مع الأوركسترا الفيلهارمونية الوطنية جوقة الجامعة الأنطونية ارتقت بالميلاد بقيادة المايسترو هاروت فازليان

مي منسى | 24 كانون الأول 2013 | 00:00

هكذا يحلو لنا أن نعيش أجواء الميلاد، بما توحيه الموسيقى من رفاهية ورخاء وسكينة. كنيسة القديس يوسف لبست اللون الأحمر رمزا لحدث آت، يشفع بالقلوب الكسيرة ويضمد بال"هللويا" كآبة الأيام وينعش ذبولها.

قبل أن تتخذ الأوركسترا الفيلهارمونية مكانها حول المذبح، كانت الفقرة الأولى من الأمسية الميلادية مخصصة لفرقة الآلات النفخية بقيادة سرغي يولون، التابعة للمؤسسة اللبنانية "لوبام" الهادفة إلى فتح آفاق الموسيقى للشباب، بالتعاون مع المعهد الوطني العالي للموسيقى.
كما أزهار الميلاد الحمراء، بزات العازفين، لون الفرح الذي سرعان ما اندمج برهجة الساكسوفونات والكلارينيت والترومبيت والتوبا في إحياء مهرجان ميلادي من تقاليد أغاني هذه المناسبة، ختامها رقصة بوهيمية إن عبّرت فعن الشغف المتوقّد في المجموعة الفتيّة وانصهارها في أجمل لعبة يمكن أن تهدى إليهم، الموسيقى.
أن نعيش زمن الميلاد يعني أن نجد ذلك الفرح الذي يقرّبنا من الله، الفرح الذي يفترض أن نتبادله مع سوانا فنكشح معا سواد الشحتار المتراكم فوق سقف حياتنا.
مع فرقة "لوبام" النفخية عادت بنا الأجواء المبتهجة على وقع الأبواق إلى الطفولة، هذه الفقرة العجيبة من الخلود. بعدها التأمت الأوركسترا الفيلهارمونية بقيادة هاروت فازليان، بأصوات جوقة الجامعة الأنطونية المدرّبة على الأب توفيق معتوق وثلاثة مغنين منفردين من عصب الأوبرا والترانيم الكنسية، أرتيميزا ريبا ذات الصوت السوبرانو الليريكي، ماريا جوزيه لو موناكو الميزو – سوبرانو، وأنيسيو جوستينياني تينور.
كنيسة القديس يوسف المشعشعة بالأنوار، باتت هذا المكان الدافئ، الذي يأتيه الجمهور اللبناني من كل صوب للاغتسال من دنس خطايا الفساد المستعصية، وفي هذا التكوّم الأخوي، بعضنا على بعض، يغدو قداس موزار التوبة التي نتوق إليها. فها هي الجوقة كأجمام من النار تتصاعد صوتا واحدا "كيريااليسون" فتؤازرها السوبرانو هذه الصرخة، والصوت كأسلاك نورانية، ناعم، رقراق، يعلو إلى نهاية حدود الصوت.

قداس موزار ليس كـ"ريكويام" الذي كتبه من وحي رسول، مكسوا بالأسود، نشيد دموع وأسى، بل هو الفرح الموزاري، الذي رصّعه في كل فقرة من هذا القداس، وفي انغماسنا فيه، تستطيب النفس ويلفحنا الحبور.

بين غناء إفرادي وآخر هي الجوقة، ترتفع بنا في "المجد لله في الأعالي" لنفاجأ بالميزو سوبرانو، تفيض حسنا حين يعلو "السنكتوس" من وتر درامي وأنفاس تتنشق هواء ما ترسله الكلارينيت إليها من الهناك، كنداء من ذلك المزمار السحري الذي ترك بصماته في خيال كل عمل موزاري. تعود ماريا جوزيه منفردة في "يا حمل الله" لروسيني، في "قداس احتفالي صغير"، بهية في هذا الترقي الذي يشد السمع إليه، فنتذكر بأننا معها نصلي.

من هذا الثالوث الانشادي، التينور أنيسيو جوستينياني، أعطى من هايدن "عالم الميلاد" أجمل ما في خامته المصقولة في صفاء موسيقى أوركسترالية، عابقة ببخور هايدن وتقواه. ففيما التينور يتحف إصغاءنا بعصارة النغم الباروكي كانت عبارات مسرعة ترد إلى ذاكرتنا لندرك أن شوبرت مد يده إلى حديقة هذا القداس الصغير ونقل عنه جملا عابرة، لمقطوعته الكبيرة "الترويتة".

الختام، وبعدما اكتمل قداس موزار بصوت السوبرانو، من تقاليد الميلاد، ترانيم أجادت في أدائها الجوقة، وقد تميّزت بمؤلفات ظلت محافظة على كلاسيكيتها ولم تنطلق خارج الأسوار الأكاديمية، بتوزيع أوركسترالي وبشري رفيع المستوى.